2007/7/17

"البعد التعبوي

لحرب تموز وانتصار المقاومة"

مداخلة د. علي فياض

في المنتدى القومي العربي

(بيروت 16تموز 2007)

أولاً، لا بد من تحديد معنى تعبوي، إذ ثمة تداخل معاني مع تعبير تعبوي... وتداخل أبعاد، وغالباً ما يستخدم مترادفاً مع البعد العقائدي، هذا ما يريده المنظمون، لكن اغلب ظني أن "تعبوياً" تعني البعد العقائدي فضلاً عن دلالات تقنية وهي تتعلق بكيفية الاستنهاض والتنوير والتعبئة وتوفير الجاهزية النفسية والمعنوية في البنية البشرية للمقاومة...

أي أن للبعد التعبوي دلالات إذا اتصلت بالمضمون فإنها تتخذ المعنى العقائدي.. أما إذا اتصلت بالشكل فإنها تتخذ دلالات تتصل بالوسائل التي يهدف من خلالها تهيئة الأهلية والاستعداد والجاهزية...

لكن دعوني أركز فيما أود معالجته على جوانب أراها أكثر أهمية من سواها... والأهمية هنا، تكمن في الطبيعة الإشكالية لبعض الجوانب والطبيعة الاستثنائية لبعض الجوانب الأخرى..

ذلك أن معالجة البعد العقائدي تكاد تكون معروفة من حيث المضمون والوجهة والأدبيات..

- **أولاً**، المقاومة الإسلامية أو الجناح العسكري لحزب الله إنما هي تتشكل إيديولوجياً وفقاً لمفاهيم الجهاد كواجب ديني والشهادة كهدف يشكل غاية ما يتمناه المؤمن والدفاع عن الأرض والوطن والأهل والنفس ومواجهة العدو وكلها مما يندرج في إطار الضرورات التي يحكم بها العقل والواجب الوطني والدين وهي مما لا يحتاج إلى إذن أو استفتاء أو رخصة إنما هي جزء من إيمان المرء ودينه وعلاقته بربه.

هذا يبدو بديهياً ولا حاجة للاستدلال عليه، وهو من الواجبات التي يبادر إليها المؤمن أو المجاهد بغض النظر عن نتائجها، ذلك أن الوجوب في ذلك هو مما يجمع عليه المسلمون بعامة.

- **ثانياً**: بيد أن خصوصية حزب الله ومن ثم خصوصية المقاومة الإسلامية، هي أن إيديولوجيا المقاومة، أو الإطار العقائدي النظري لم يقتصر في تشكيله على البعد الديني المؤسس إنما تطور وفقاً لأبعاد عديدة لا تبدو بديهية لدى الحركات والأحزاب الإسلامية بل في اغلب الأحوال هي أبعاد إشكالية تختلف بين حركة إسلامية وأخرى، فضلاً عن أن الأحزاب القومية نفسها واجهت هذه الإشكاليات لكن من زوايا ومقتربات مختلفة.

إذ أن سؤالاً رئيسياً طالما واجه الحركات الإسلامية والقومية على حدٍ سواء، يتصل بعلاقة الأبعاد الديني والعروبي والوطني بعضها ببعض...

إن إيديولوجيا المقاومة الإسلامية هي إيديولوجيا مثلثة الأبعاد دينياً وعروبياً ووطنياً، إذ أن تحليل أهداف المقاومة وأدبياتها وفكرها السياسي ومفرداتها وبرامجها التي واجهت بها تعقيدات الواقعين السياسي والاجتماعي تفضي إلى تلمس هذه الأبعاد مجتمعة دونما تضارب وتناقض، إذ رغم الأهمية الفائقة للبعد الديني، إلا أن في أحيان مفصلية قد نجد هيمنة للبعد الوطني على البعدين الآخرين، وفي أحيان أخرى قد نجد هيمنة للبعد العربي القومي على البعدين الآخرين...

هذا التكييف التوافقي التصالحي للأبعاد الثلاثة في تشكيل إيديولوجيا المقاومة لم يكن في تجربة المقاومة وليد تأمل نظري صرف، إنما أنتجته التجربة وصهرته وطورته في مسار معقد وطويل من مواجهة التحديات والتعقيدات المحلية والإقليمية والدولية...

فالمقاومة تجاوزت هذا التناقض الطفولي في الفكر السياسي بين ما هو وطني وما هو عربي وما هو ديني، إذ أن هذه الأبعاد متداخلة وهي أشبه بالقنوات المتصلة التي يردف بعضها بعضاً، فلا يجوز أن توهم حركة ما نفسها أنها قادرة على أن تحقق انجازات دينية أو قومية على حساب المصالح الوطنية. ولا يجوز كذلك أن تكون المصالح الوطنية مدعاة لإلحاق الضرر بما يفترض أنه مصالح قومية..

إن أحد الشروط الجوهرية لنجاح حركة المقاومة هي أن تحقق أهدافها بوصفها حركة تحرر وطني وان تكون قادرة على اكتساب البيئة المحلية كحاضنة اجتماعية وسياسية لمسارها النضالي.

إنه لمن الخطورة بمكان الاستخفاف أو تجاوز المشروعية الوطنية في هوية المقاومة تحت أية حجة أو بالاستناد إلى أي مسّوغات.

- **ثالثاً:** بالانتقال إلى تحليل البنية الشكلية للبعد التعبوي.

ثمة جوانب لا تزال غير منظورة في تفسير نجاح المقاومة وهي لا تلقى التركيز الكافي لفهم خصوصية هذه التجربة. ذلك أن المقاربات غالباً ما تذهب باتجاه تفسير الآداءين السياسي والعسكري وفي تحليل المضمون الإيديولوجي للمقاومة..

إلا أن كل هذا، يستند في حقيقة الأمر إلى بنية تنظيمية ذات خصوصية وفرادة.. وهي التي تشكل الإطار الشكلي للآداءين العسكري والسياسي وهي وثيقة الصلة أيضاً بالمضمون الإيديولوجي..

تقوم المقاومة تنظيمياً على مزيج ديناميكي حيوي من قائد وبنية مؤسساتية، تتمتع بكل مواصفات الحيوية الثورية والانضباط الإداري الرفيع المستوى.

ولا يخفى أن الحاجة للقائد الفرد في مجتمعاتنا هي حاجة بسيكولوجية اجتماعية. وهي ضرورة للاستنهاض الشعبي وتجاوز أزمة نخبوية البرامج السياسية والتشكيلات الحزبية في علاقتها بجماهيرها...

كما أن الحاجة للمؤسسات بما يتجاوز الارتهان للمبادرة الفردية، إن هو إلا استجابة لضرورة وجود نسق أو سيستام في تحقيق الأهداف، إن أزمة أحزابنا في المنطقة العربية وفي تاريخنا السياسي العربي الحديث. هو إما ارتكازها إلى وجود القائد الفرد. مع غياب المنطق والبنية المؤسساتية. ما يرهن حضور المشروع وفاعليته واستمراره بوجود هذا القائد الفرد.

وإما توفر برامج سياسية ونضج مؤسساتي لا يقترن مع توفر قيادات تاريخية قادرة على كسر الطابع النخبوي وتحويل المشروع إلى مشروع اجتماعي تاريخي فاعل.

إن توفر الشرطين معاً، يستجيب لحاجة استيعاب الواقع واستنهاضه من قلب المنطق والحقائق الاجتماعية السائدة ويوفر في الوقت ذاته القدرة على التطوير والترشيد والإصلاح.

- **رابعاً:** تؤدي الثقة بالقيادة دوراً كبيراً في الحالة التعبوية لدى المقاومة، وقد أدت خطابات الأمين العام ورسائله إبان المعركة دوراً استنهاضياً حيوياً لا شك فيه... ليس فقط للكتلة المقاتلة، بل للجماهير اللبنانية والعربية...
إن تلك الثقة تنبع بالدرجة الأساسية من تضحيات هذه القيادة نفسها، ومن سلوكها الشخصي وصدقها وحكمتها...

إن هذه العلاقة التي تقوم على التماهي والتفاعل والثقة بين القيادة وجماهيرها... أسهمت في جعل الجماهير في حالة استعداد كامل لتحمل تكاليف الحرب وأعباءها..في الأرواح والممتلكات، وما كان ممكناً بطبيعة الحال. لهذا الانتصار أن يتحقق لولا هذا الاستعداد الشعبي الذي أذهلنا جميعاً.

ألف ومائتي شهيد وأربعة آلاف جريح وتدمير وإصابة ما يقارب 128 ألف وحدة سكنية دون أن ترفع صرخة اعتراض واحدة، بل على العكس من ذلك، الخطاب الشعبي كان خطاباً رفيعاً وسامياً من الناحية المعنوية... فقد كان تركيز الناس على أهمية الانتصار كهدف ترخص في سبيله كل التضحيات والخسائر القائمة...

- **خامساً:** تطرح نتائج حرب تموز وانتصار المقاومة التاريخي وعجز إسرائيل وفشلها عن تحقيق أهدافها من الحرب، سؤالاً جوهرياً حول الآثار التعبوية المترتبة على هذه النتائج...
ونقصد بالآثار التعبوية.. ما يتصل بالنتائج على الصعيد العربي كجماهير وأحزاب وجيوش وأنظمة... من حيث الاستنهاض وكسر حالة الإحباط التي كانت سائدة بصورة أو أخرى..

لا شك أن التحرير عام 2000 ونتائج حرب تموز عام 2006 قد أسهمت في تنشئة الجيل العربي الشاب على عقلية الانتصار والأمل والثقة بالذات العربية على عكس

الجيل العربي الذي ولد وترعرع على وقع هزيمة الـ 67 وتأثيرات الاجتياح الإسرائيلي لبيروت.

إذن نحن أمام مكونات نفسية وثقافية وسياسية مختلفة وأمام بيئة على الرغم من مشاكلها التي لا تحصى... إلا أنها أكثر إبعاثاً للتفاؤل والثقة بالذات، وفي واقع الحال، إن ذلك هو أحد الأهداف الأساسية التي وضعتها المقاومة لنفسها إلى جانب هدف التحرير، هدف الاستنهاض..

فهل نحن أمام حالة استنهاض حقيقية وكاملة في الشارع العربي...؟

هل يكفي أن تولد حالة التعاطف المعنوي والشعور بالزهو وتحول المزاج الشعبي إلى مزاج تفاؤلي وان تظهر هذه الجماهير العربية تأثرها واحترامها وتقديرها للمقاومة...

هل يكفي أن تعبر هذه الحالة عن نفسها بالمستوى العاطفي الشعوري دون أن تتحول إلى المستوى السياسي الذي يعبر عن نفسه بتعبيرات وتحولات سياسية؟.

فما هو شرط تحول النتائج العاطفية إلى نتائج سياسية في الشارع العربي؟

لقد ردت الأنظمة المتحالفة مع أميركا، على نتائج حرب تموز بالإمعان في سياسات التآمر على المقاومة وعلى القضية الفلسطينية وعلى تشديد الضغط على قوى الممانعة.. ولذهاب إلى ما هو أبعد في سياسة التنسيق وبناء المحاور مع أميركا..

السؤال كيف نحوّل المخزون العاطفي لدى الأحزاب والنخب والجماهير المتولد عن حرب تموز إلى فعل سياسي قادر على إحداث تغييرات وتحولات على الأقل في السياسات العربية المعتمدة تجاه المقاومة والشعب الفلسطيني...

برأينا هذا هو السؤال المركزي المطروح على النخب والأحزاب في العالم العربي.

وهذا ما يجب أن ينصب الجهد عليه للإجابة ببرامج وتصورات شاملة.. إذا أردنا لمفاعيل الانتصار أن تتحول من المستوى العاطفي إلى المستوى السياسي.. ومن ثم من المستوى السياسي إلى المستوى الإستراتيجي.